بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التى نبدأ خواطرنا عنها هى سورة الحجر[(١)] تبدأ بالكلام عن جامع البلاغ ، ومنهج لحياة الحياة وهو القرآن الكريم الذى قد جاء بالخبر اليقين فى قضية الألوهية الواحدة ، والتى ذكرنا فى آخر السورة السابقة بأن أولى الألباب يستقبلونها بعقولهم .

ويقول الحق سبحانه فى مُستهل السورة :

﴿ الٓر[(٢)] تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)

---

(١) هذه السورة هى السورة الخامسة عشر من القرآن بترتيب المصحف ، وهى سورة مكية ، عدد آياتها ٩٩ آية ، بدايتها هى بداية الجزء ١٤ من القرآن . وقد سميت سورة الحجر بهذا الاسم نسبة إلى أصحاب الحجر المذكورين فى الآية (٨٠) من السورة ، وهم قوم ثمود أرسل لهم الله صالحاً رسولاً فكذبوه . والحجر : ديار ثمود ناحية الشام عند وادى القرى . والحجر أيضاً فى معناه اللغوى : العقل . وقد أنزلت هذه السورة بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام . على ما أورده السيوطى فى علوم القرآن (١/ ٢٧) .

(٢) قال السيوطى فى الإتقان (٣/ ٢١) : « خاض فى معناها علماء . فأخرج ابن أبى حاتم وغيره من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله (الر) : أنا الله أرى . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى ، قال : (الر) من الرحمن . وقيل : (الر) معناه : أنا الله أعلم وأرفع . حكاه الكرمانى فى غرائبه » . ثم قال : « والمختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وقال الشعبى : إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور » .

والسورة كما نرى قد افْتُتِـحَتْ بالحروف التوقيفية ؛ والتى قلنا : إن جبـريل عليه السلام نزل وقرأها هـكذا ؛ وحفظهـا رسول الله ﷺ وأبلغهـا لنا ﷺ هكذا ؛ وهى قد نـزلتْ أوَّل ما نزلت على قـوم برعوا فى اللغة ؛ وهم أهل فصاحة وبيان ، ولم نجد منهم مَنْ يستنكرها .

وهى حروف مُقطَعة تُنطَق بأسماء الحـروف لا مُسمَّياتها ، ونعلم أن لكل حـرف اسـماً ، وله مسـمى ؛ فـحـين نقـول أو نكتب كلمـة « كتب » ؛ فنحن نضـع حروفاً هى الكاف والباء والتـاء بجانب بعضـها البعض ، لتكوّن الكلمة كما ننطقها أو نقرؤها .

ويقال عن ذلك إنها مُسمَّيات الحروف ، أما أسماء الحروف ؛ فهى « كـاف » و « باء » و « تـاء » . ولا يعـرف أسـمــاء الحـروف إلا المُتعلِّم ؛ ولذلك حين تريد أن تختـبر واحداً فى القراءة والكتابة تقول له : تَهَجَّ حـروف الكلمة التى تكتـبهـا ، فإن نطق أسـماءَ الـحروف ؛ عرفنا أنه يُجيد القراءة والكتابة .

وهذا القـرآن ـ كمـا نعلم ـ نزل مُعـجزاً للعـرب الذين نبغـوا فى اللغة ، وكانوا يقـيمون لها أسواقـاً ؛ مثل المعارض التى نقيـمها نحن لصناعاتنا المتقدمة .

ولذلك شاء الـحق سبحـانه أن تأتى معـجزة الرسول الـخاتم من جنس ما نبغوا فـيه ؛ فلو كانت المعجزة من جنس غير مـا نبغوا فيه ولم يَألفوه لَقَالوا : لو تعلمنا هذا الأمر لَصنعْنَا ما يفوقه .

وجـاءتهم معـجـزة القـرآن من نفس الجنس الذى نبـغُـوا فيـه ،

وباللغة العربية وبنفس المُفْردات المُكوَّنة من الحروف التى تُكوِّنون منها كلماتكم ، والذى جعل القرآن مُعْجزاً أن المُتكلِّم به خالق وليس مخلوقاً . وفى « الر » نفس الخامات التى تصنعون منها لُغَتكم .

وهذا بعض ما أمكن أن يلتقطه العلماء من فواتح السور . علينا أن نعلم أن لله فى كلماته أسراراً ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ[1] فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

أى : أن القرآن به آيات مُحْكمات ، هى آيات الأحكام التى يترتب عليها الثواب والعقاب ، أما الآيات المتشابهات فهى مثل تلك الآيات التى تبدأ بها فواتح بعض من السور ؛ ومَنْ فى قلوبهم زَيْغ يتساءلون : ما معناها ؟

وهم يقولون ذلك لا بَحْثاً عن معنى ؛ ولكن رغبةً للفتنة .

ولهؤلاء نقول : أتريدون أنْ تفهموا كل شيء بعقولكم ؟ إن العقل ليس إلا وسيلةَ إدراك ؛ مثْله مثْل العين ، ومثْل الأذن .

فهل ترى عيناك كل ما يمكن أن يُرَى ؟ طبعاً لا ؛ لأن للرؤية

(١) الزيغ : الميل . يقال : زاغ عن الطريق إذا عدل عنه . [لسان العرب ـ مادة : زيغ] .

بالعين قوانينَ وحدوداً ، فإنْ كنتَ بعيداً بمسافة كبيرة عن الشيء فلن تراه ؛ ذلك أن العين لا ترى أبعد من حدود الأفق .

وكل إنسان يختلف أُفْقه حَسْب قوة بصره ؛ فهناك مَنْ أنعم الله عليه ببصر قوى وحادٍّ ؛ وهناك مَنْ هو ضعيفُ البصرِ ؛ ويحتاج إلى نظارة طبية تساعده على دِقّة الإبصار .

فإذا كانت للعين - وهى وسيلة إدراك المرائى - حدود ، وإذا كانت للأذن ، وهى وسيلة إدراك الأصوات بحد المسافة الموجية للصوت ؛ فلابُدَّ أن تكون هناك حدود للعقل ، فهناك ما يمكن أن تفهمه ؛ وهناك مَا لا يمكن أن تفهمه .

والرسول ﷺ قال عن آيات القرآن : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به »[1] .

وذلك حفاظاً على مواقيت ومواعيد ميلاد أىِّ سِرٍّ من الأسرار المكنونة فى القرآن الكريم ، فلو أن القرآن قد أعطى كل أسراره فى أول قَرْن نزل فيه ؛ فكيف يستقبل القرونَ الأخرى بدون سِرٍّ جديد ؟

إذن : فكُلَّما ارتقى العقل البشرى ؛ كلما أذِن الله بكشف سرٍّ من أسرار القرآن . ولا أحد بقادر على أن يجادل فى آيات الأحكام .

---

(١) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣٤٦/١) لابن مردويه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١٥٤/٢) وعزاه لنصر المقدسى فى الحجة .

ويقول الحق سبحانه عن الآيات المتشابهة :

﴿ وما يعْلَمُ تأْويلَهُ إلاَّ اللَّهُ ـ والرَّاسخُون[1] في الْعلْم يقُولُون آمنَّا به كُلٌّ مِّنْ عند ربنا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهناك مَنْ يقــرأ هذه الآية كــالآتي : « ومــا يعــلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ـ » وتناسى مَنْ يقرأ تلك القراءة[2] أن مُنْتهى الرسوخ في العلم أن تؤمن بتلك الآيات كما هي[3] .

والحق سبحانه هنا يقول :

﴿ الَر تلْكَ آياتُ الْكتَاب وقُرْآنٍ مُّبينٍ (١) ﴾ [الحجر]

و (تلك) إشــارة لما سبق ولمَـا هو قادم من الكـتاب ، و (آيات) جمع « آية » . وهي : الشيء العـجيب الذي يُلْتفت إليـه . والآيات إما أنْ تكونَ كونية كالليل والنهار والشمس والقمر لتثبت الوجود الأعلى ، وإما أنْ تكونَ الآيات المُعْجزة الدالة على صــدْق البلاغ عن الله وهي معجزات الرسل ، وإما أن تكونَ آيات القرآن التي تحمل المنهج للناس كافّة .

---

(١) الراسـخون في العلم : المـتمكنون فـيه . وأورد السـيوطي في الدر المنـثور (٢/١٥١) أن رسـول الله ﷺ قـال : « من برت يمـينه ، وصدق لـسانه ، واسـتـقـام قلبـه ، وعف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم » عزاه لابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة وأبي الدرداء .

(٢) مقـتضى هـذه القراءة الوقف اللازم عـلى كلمـة العـلم ، ويكون معـنى الآية أن الراسـخين في العلم يعلمـون تأويل الآيات المتشـابهة . أمـا القراءة الأولى ، فالوقف على لـفظ الجلالة (الله) معناه أن الله وحـده هو عالم تأويل الآيات المتـشابهة . (انظر : تفـسير ابن كثـير ١/٣٤٧) .

(٣) قالت عـائشة رضي الله عنهـا : كان رسوخـهم في العلم أن آمنوا بمحكمـه ومتشـابهه ولم يعلموا تأويله . أورده السـيوطي في الدر المنثور (٢/١٥١) وعـزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) ﴾ [الحجر]

فهل الكتاب هو شيء غير القرآن ؟ ونقول : إن الكتاب إذا أُطلق ؛ فهو ينصرف إلى كل ما نزل من الله على الرسل ؛ كصحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ؛ وكل تلك كتب ، ولذلك يسمونهم « أهل كتاب » .

أما إذا جاءت كلمة « الكتاب » مُعرَّفة بالألف واللام ؛ فلا ينصرف إلا للقرآن ، لأنه نزل كتاباً خاتماً ، ومُهيْمناً على الكتب الأخرى .

وبعد ذلك جاء بالوصف الخاص وهو (قرآن) ، وبذلك يكون قد عطف خاصاً على عامٌ . فالكتاب هو القرآن ، ودلّ بهذا على أنه سيكتب كتاباً ، وكان مكتوباً من قبل في اللوح المحفوظ .

وإن قيل : إن الكتب السابقة قد كُتبت أيضاً ؛ فالردّ هو أن تلك الكتب قد كُتبت بعد أن نزلتْ بفترة طويلة ، ولم تُكتب مثْل القرآن ساعة التلقّي من جبريل عليه السلام . فالقرآن يتميز بأنه قد كُتب في نفس زمن نُزوله ، ولم يُترك لقرون كبقية الكتب ثم بُدِئ في كتابته .

والقرآن يُوصَف بأنه مُبين في ذاته ومُبين لغيره ؛ وهو أيضاً مُحيط بكل شيء .

وسبحانه القائل :

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

وأىُّ أمر يحتاج لحكم ؛ فإما أن تجده مُفصَّلاً فى القرآن ، أو نسأل فيه أهل الذكر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فاسألوا أهل الذكر[1] إن كنتم لا تعلمون (٧) ﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

و « رُبَّ » حرف يستعمل للتقليل ، ويُستعمل أيضاً للتكثير على حَسْب ما يأتى من بعده ، وهو حَرْفٌ الأصل فيه أن يدخلَ على المفرد . ونحن نقول « رُبَّ أخٍ لك لم تلدْه أمك » وذلك للتقليل ، مثلما نقول « ربما ينجح الكسول » .

ولكن لو قُلْنا « ربما ينجح الذكى » فهذا للتكثير ، وفى هذا استعمال للشىء فى نقيضه ، إيقاظاً للعقل كى ينتبه .

وهنا جاء الحق سبحانه :

بـ « رُب » ومعها حرف « ما » ومن بعدهما فعل[2] . ومن العيب أن تقول : إن « ما » هنا زائدة ؛ ذلك أن المتكلم هو ربُّ كل العباد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ رُبما يودُّ الَّذين كفروا لو كانُوا مُسْلمين (٢) ﴾ [الحجر]

---

(١) الذكر : القرآن والكتب المنزلة كلها . أى : اسألوا أهل العلم من الامم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كل الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ [تفسير ابن كثير ١/ ١٧٤] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٧٢٥) : « رُبَّ لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها « ما » هيأتها للدخول على الفعل » . وقال ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١/ ١٢٠) : « إذا زيدت « ما » بعد « رب » ، فالغالب أن تكفها عن العمل ، وأن تهيئها للدخول على الجمل الفعلية ، وأن يكون الفعل ماضياً لفظاً ومعنى » .

فهل سيأتي وقت يتمنى فيه أهل الكفر أنْ يُسلموا ؟ إن « يودّ » تعني « يحب » و « يميل » و « يتمنى » ، وكل شيء تميل إليه وتتمناه يسمى « طلب » .

ويقال في اللغة : إن طلبت أمراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألاّ يتحقق ؛ فإنْ قُلْتَ : « يا ليت الشبابَ يعود يوماً » فهذا طَلبٌ لا يمكن أن يتحققَ ؛ لذلك يُقال إنه « تمنى » . وإنْ قلت « لعلّي أزور فلاناً » فهذا يُسمّى رجاء ؛ لأنه من الممكن أن تزور فلاناً . وقد تقول : « كم عندك ؟ » بهدف أن تعرف الصورة الذهنية لمَنْ يجلس إليه مَنْ تسأله هذا السؤال ، وهذا يُسمّى استفهاماً .

وهكذا إنْ كنت قد طلبتَ عزيزاً لا يُنال فهو تمنٍّ ؛ وإن كنت قد طلبتَ ما يمكن أن يُنَال فهو الترجيَ ، وإنْ كنتَ قد طلبتَ صورته لا حقيقته فهو استفهام ، ولكن إنْ طلبت حقيقة الشيء ؛ فأنت تطلبه كي لا تفعل الفعل .

والطلب هنا في هذه الآية ؛ يقول :

﴿ رُبَما يودُّ الَّذين كفرُوا لَوْ كانُوا مُسْلمين (٢) ﴾ [الحجر]

فهل يتأتّى هذا الطلب ؟

ولْنَر متى يودُّون ذلك . إن ذلك التمنّي سوف يحدث إنْ وقعتْ لهم أحداثٌ تنزع منهم العناد ؛ فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وجَحدُوا(١) بهَا واسْتيْقنتْهَا أنفُسهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

---

(١) جحد الحق : أنكره وهو يعلمه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وقد حدث لهم حين وقعت غزوة بدر ، ونال منهم المسلمون الغنائم أنْ قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الغنائم[1] .

أي : أن هذا التمنّي قد حدث في الدنيا ، ولسوف يحدث هذا عند موت أحدهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ويعلق الحق سبحانه على هذا القول :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

إذن : فسيأتي وقت يتمنّى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، إذَا مَا عاينوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم : إن الحياة التي كنتم تتمسّكون بها فانية ؛ ولكنكم تطلبون أن تكونوا مسلمين وقت أنْ زالَ التكليف ، وقد فات الأوان .

ويكفي المسلمين فخْراً أنْ كانوا على دين الله ، واستمسكوا بالتكليف ، ويكفيكم عاراً أنْ خسرْتم هذا الخسران المبين ، وتتحسروا على أنكم لم تكونوا مسلمين .

---

(١) أورد السيوطي في الدر المنثور (٥/٦١) عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : « ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ » .